المصدر: صوت الأمة
التاريخ : ٢٠٠٣/٦/٢٩

الضعيف الذى افترس الأقوياء

تولى أنور السادات حكم مصر وأرضها محتلة وقناتها مغلقة وجزء من شعبها يعيش حياة المهاجرين فى داخلها ومعتقلاتها مفتوحة لمن يهمس بكلمة لا ترضى الحاكم واقتصادها يترنح.. والاتحاد السوفيتى هو المسيطر على نظامها السياسى وهو المستولى على إنتاجها القضاء للديون.. وكانت زعامة عبدالناصر رغم المأساة، تملأ الفراغ بسحر تأثيرها على الجماهير المصرية والعربية..

وظهر أنور السادات أمام الشعب، مجهول التاريخ، مجهول الهوية.. لا يوحى بأى قدرات فى الحكم أو العمل السياسى.. ورضى الاتحاد السوفيتى باختياره اقتناعا بأنه شخصية ضعيفة يسهل احتواؤها..من قيادات التنظيم السياسى التى كانت على أوثق الروابط مع موسكو.. وانتهت حسابات أمريكا إلى أن القادم الجديد لن يحكم أكثر من أربعة أشهر..

وفجأة تطورت الأمور.. وإذ بهذا الرجل الضعيف يصدر قرارا بطرد ١٥ ألف عسكرى سوفيتى.. وينفذ القرار دون إبطاء!.. ثم يقضى تماما على السيطرة السوفيتية. وينتهى حكمه بسفارة سوفيتية فى مصر بلا سفير.. وإذ به يصبح قبلة الانظار فى العالم الغربى شعبيا ورسميا. زعيما فذا شجاعا.. لا يطل مثل وجهه على البشرية إلا مرة كل قرن كما عبر عن ذلك الدكتور «كرايسكى» مستشار النمسا، عندما أعلن أن زعيمين عالميين ظهرا فى هذا القرن.. هما «تشرشل» و«السادات». ولاشك أن محمد أنور السادات أصبح ظاهرة عالمية، بهذا الكيان الفريد..

وقد صدرت عنه فى حياته عشرات المؤلفات من أقلام كبيرة لها وزنها.. وسوف تصدر عنه مئات المؤلفات على مدى أجيال قادمة .. وسوف يكون مادة خصبة لتحليل جوانب شخصيته.. وخفايا قراراته.. من القوى المؤيدة، والمعادية.. ومن الأقلام الأمينة وذات الهوى.. ولذلك فإن المؤلف الواحد عن أنور السادات الذى يستغرق بضع مئات من الصفحات يستحيل أن يلم إلا بقدر محدود من جوانب شخصيته وأعماله..

ومحاولتى من أجل تقييم شخصية السادات، الإنسان، والحاكم.. وهى من قلم مؤيد.. لا تعنى أنها مجرد هتافات باسم السادات.. أو تبريرات لكل قرار أصدره السادات.. لقد جاهدت النفس والعقل، أن أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. وسعيت بضمير القاضى أن يصدر الحكم فى سطورى عادلا منصفا.. وأن أسجل الأخطاء من وجهة نظرى دون تحيز له أو عليه.. نعم حاولت أن أكون موضوعيا بقدر فهمى وانطباعى.. وبقدر موقعى الصحفى قريبا منه.. وموقعى الشخصى «زميلا له فى رحلة الحياة» كما عبر هو بقلمه عندما أهدانى كتابه «البحث عن الذات»..

ولذلك.. وحتى تكون كل الوقائع واضحة أمام القارئ.. دون شبهة خداع فإننى أقدم إلى القارئ.. وبكل أمانة مفاتيح علاقتى مع أنور السادات.

لم نكن أصدقاء بمعنى كلمة الصداقة.. فهو لم يزرنى فى بيتى.. وأنا لم أقصد بيته على مدى علاقة بدأت فى عام ١٩٤٣ وامتدت قرابة أربعين عاما إلا فى لقاءات عمل و بمواعيد مسبقة.. وهو لم يعدنى مريضا.. والكلفة بيننا لم ترفع إلا بقدر.. ولكننى كنت دائما قادرا على التحدث إليه بقلب مفتوح وبعقل لا يستريح حتى يقول رأيه الصريح .. وهذا ما أتاحه لى موقعى الصحفى بعيدا عن قيود الالتزام الرسمى أمام رئيس دولة.. ومن طبيعة هذه الرابطة كان لا يتحرجة أن يستقبلنى فى غرفة نومه «بالبيجاما» وهو متمدد على «شلته» فى شرفة منزله.. أو يطلب لى طعاما فى موعد الطعام.. أو يفضى إلىّ برأى فى شخص أو حدث. ودون أى حرج.. وبكل الثقة فىّ لأن كلمته محفوظة بكل الصون وبكل الأمانة على ما فيها من أسرار.

ولكن الرجل، كان يعتبرنى، كرما فى خلقه، واحدا من أفراد أسرته وكان يطمئن دائما على أحوال عيالى وأسرتى.. وكانت السيدة الفاضلة قرينته جيهان السادات تقوم بكل كرم السجايا النبيلة بما تفرضه الواجبات الاجتماعية مع أسرتى فى الضراء قبل السراء.. فى حياة زوجتى وبعد وفاتها.

وهكذا فمن واقع رابطة العمل مع أنور السادات وهى رابطة لها نسيجها الإنسانى والعاطفى فى المقام الأول.. كنت لا أتردد فى أن أتحدث إليه فى كل شىء.. ما لا يرضيه قبل ما يرضيه.. وكنت أنقل له رأيى بلا قيود.. إلا ما يفرضه آداب الحديث. فى الأشخاص المحيطين به، عندما وجدت أن بعض هذه الأسماء تستثمر وجودها بقربه، وتشوه من رصيد السادات أمام الجماهير وكان يغضب فى بعض الأحيان.. وكان يدلل على ضعف حجتى فى أحيان أخرى.. وكان يصمت عن التعليق فى مناسبات عندما يفضل الاستماع والاستيعاب دون أن يبدى رأيه.. وكان الصمت عن التعليق من مميزات شخصيته.

وقد اختلفت مع الراحل العظيم فى بعض ما نشرته وأثار ألمه.. وفى إحدى المرات، قال لسكرتيره بصوت مرتفع غاضب، عندما أبلغه أننى «على التليفون»: «انتهى ما بينى وبين فلان.. ومنذ الآن لا كلام ولا سلام ولا معرفة».. وأبلغنى سكرتيره بنص كلماته التى سمعت طرفا منها والسماعة مفتوحة.. فما كان منى إلا أن جمعت أوراقى من مكتبى وكتبت استقالتى. ولكنه. فى اليوم التالى. وقبل مرور أربع وعشرين ساعة طلبنى فى التليفون وانتهت الأزمة.

وكنت أفضل دائما ألا اتحدث إليه وهو غاضب.. لأننى كنت أعرف أن هذه الغضبات مؤقتة.. زئير أسد ينطلق من حمل وديع (وهذا تعبير الدكتور رفعت المحجوب).. وكنت أنتظر يوما أو يومين لاتحدث إليه بعد ذلك فى موضوع غضبه.. ويجرى الحديث هادئا مشوبا بعاطفة مودة لم تنقطع أبدا..

وحدث أن هاجمنى الرئيس السادات باسمى فى اجتماع

عام، أذيع تسجيله
على شاشة
التليفزيون..
وذهبت إلى مكتبى
وفوجئت
بزملائى يروون
لى ما حدث
بين دهشتهم
وذهولهم..
واتصل بى
أكثر من
وزير
يسألنى.. ماذا جرى؟.. ثم اطلعت على كلماته.. ورأيت أنه ظلمنى بلا مبرر.. فاتصلت به على الفور. وكان فى الإسكندرية. وبكل بساطة سألته «لماذا هاجمتنى يا سيادة الرئيس؟.. وأجاب بسبب الهجوم، وأوضحت له بكل هدوء أن السبب لا أساس له من الصحة.. اقتنع تماما.. وقال لى ببساطة وطيبة «معلهش.. أهى جات فيك».. وضحكنا.. وكان مثار تساؤل زملائى فى «أخبار اليوم».. كيف انتهى هذا التوتر العنيف فى نفس اليوم وكأن شيئا لم يكن.. بل تضاعف تساؤلهم عندما ظهر السادات على شاشة التليفزيون. بعد ثلاثة أيام. فى اجتماع عام مع أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية واستشهد فى حديثه بحوار دار بينى وبين بيريز زعيم المعارضة فى إسرائيل.

وعشرات من مثل هذه الحوادث العابرة جرت فى رابطتى بأنور السادات على مدى أحد عشر عاما وهو فى قمة المسئولية.. ولم تنقطع الرابطة أبدا.. وقد وصلت إلى سمعى أكثر من قصة عن محاولات من بعض الأشخاص «للدس بين الرجل الكبير وبينى، أوللإساءة إلى ثقته بى.. ولكن هذه الثقة لم تهتز أبدا.

وأشهد للتاريخ وأمام الله.. أنى عشت سنوات حكمه مستريح الضمير لأننى لم أخف عنه، ما يدور بخاطرى، مهما كانت الظروف.. ولكن ذلك كان يتم دائما فى حدود علاقة العمل الصحفية.. فلم أكن شريك حكم. ولم أحشر أنفى فيما لا يخصنى. ولم اتجاوز أبدا حدود مسئوليتى الصحفية.

وقد حدثت فى هذا المجال واقعتان..

● **الواقعة الأولى..** عندما فوجئت بقرار صدر من الرئيس السادات باختيارى رئيسا للجنة الإعلام فى حزب مصر.. وأرسل هذا القرار إلى الصحف لنشره مع قرار آخر باختيار يوسف السباعى رئيسا للجنة الثقافية..

والحقيقة أننى لم أكن عضوا فى حزب مصر، ولم أتقدم بطلب عضوية ولذلك لم أخرج من أن أشير فى مقال ظهر لى بعد ذلك وفى الصفحة الأولى من «الأخبار».. أننى فوجئت بهذا الاختيار.. وأننى لست عضوا فى حزب مصر.. وأننى لم أباشر على الإطلاق أى مسئولية فى هذه اللجنة.

ولم يضايقنى الراحل العظيم أبدا فيما نشرت..

● والواقعة الثانية: عندما أبلغنى مصطفى أمين أن ممدوح سالم بتكليف من أنور السادات عرض على محمد حسنين هيكل منصب وزير الإعلام بعد أن انتهت قطيعة بينهما.. لم تلبث أن عادت وأذكر أننى قلت لمصطفى أمين: «هذا خطأ كبير وقع فيه السادات وسوف يرفض هيكل هذا العرض لأنه أذكى من أن يقبله.. وسوف يستثمر عرض المنصب عليه ورفضه له أبشع استثمار».

وأبلغ مصطفى أمين هذا الرأى للرئيس السادات.. الذى طلبنى تليفونيا فى منزلى البتول لى مازحا.. «رأيك يدل على انك لا تفهم فى السياسة.. ولولا خوفى من انزعاج روحتك، وهى فى مقام ابنتى، لأمرت

باعتقالك فى مستشفى بهمان بالمعادى.. حتى تعود اعصابك إلى طبيعتها»..

وقلت للرئيس: «لا أزال عند رأيى باريس.. ولن أغيره حتى بعد دخولى مستشفى بهمان.. وسوف يرفض هيكل.. ويستثمر هذا»..

وحدث ما توقعته.. ولم يفاتحنى أنور السادات بعد ذلك فى هذا الموضوع أبدا، والتزمت بحدود أخرى فى علاقتى بالرئيس السادات حتى فارق الحياة.

● الحد الأول: هو أننى لم اسمح لهذه العلاقة أن تتطور إلى أكثر من إطارها، فكثيرا ما عرض على عندما أكون على موعد معه.. أن ارتدى ملابس الرياضة وأمارس رياضة المشى معه.. واعتذرت عن عدم إمكانى ذلك ولسبب بسيط هو أننى لا أحب المشى.. وأكثر من مرة دعانى إلى مشاهدة فيلم سينمائى معه وأكون قد انتهيت من عملى معه وعلى وشك الانصراف.. وكنت أعتذر عن عدم تلبية الدعوة بأكثر من حجة.

والسبب الحقيقى وراء ذلك أننى كنت أرى أن زيادة الرابطة قد تفسدها..

● الحد الثانى: هو أننى لم أطلب لقاء الرئيس أو الحديث إليه بالتليفون.. إلا إذا كان هناك مبرر قوى لذلك يستدعى أن أعرف وجهة نظره.. سواء فى أزمة خارجية.. أو خبر خطير نقلته وكالات الأنباء.. أو حدث داخلى مهم.

ولذلك كانت تمر أسابيع عديدة.. دون أن أتحدث إليه..

وكان اقتناعى أن الرابطة مع رئيس الدولة ليست رابطة «رغى» فى أى أمر عادى من الأمور.. وإذا كان لى حق التحدث إليه فى أى وقت.. فلا يعنى ذلك أن أسئ استخدام هذا الحق.. أو اتحول بهذا الحق إلى خلق صداقة من نوع آخر غير صداقة العمل..

● الحد الثالث: هو أننى تجنبت تماما أن أحشر نفسى فى «شبهة رسمية» بمعنى أنه كان من طبيعة السادات، عندما تتحدث إليه فى أمر من الأمور، ويقتضى هذا الأمر اصدار توجيه منه إلى أحد الوزراء أو إلى رئيس الوزراء.. كان الرجل يقول ببساطة: «بعد أن ينتهى حديثنا اتصل بفلان . أى الوزير المسئول . وأبلغه بكذا وكذا».. لقد كنت حريصا أن أقول للرئيس على الفور.. سيكون أفضل لو اتصلت به سيادتك، حتى.. لا يفهم وضعى خطأ.. وكان الرجل يقدر ويستجيب..

● الحد الرابع: هو أننى لم أطلب أبدا طلبا شخصيا من الرئيس، وربما كان الطلب الوحيد الذى ألححت عليه واعتبرته طلبا شخصيا هو *الإفراج* عن مصطفى أمين بعد أن أمضى فى السجن قرابة تسع سنوات.